

على عرش فرنسا من أن يظهر أى عطف على مثل هاتيك الحركات الشعبية التي من شأنها أن تزول المروش إذا أطلق لها العنان ، وأمن على هذا الرأي ذلك الملك الذي جعل المحافظة على عرشه قاعدة حكمه ، وذاق الثوار في إيطاليا مرارة الخيبة والخذلان مرة ثانية .

أليس ذلك ما كان يخشاه مازيني ؟ ألم يب على الكاربناري اعتمادهم على غيرهم ؟ ها هي ذى الأيام تأتي مصدقة لما رأى ، وإذا فليس لإيطاليا بدم اليوم إذا أرادت النجاح أن تسير على نهج الكاربناري ، وعليها أن تنتهج نهجاً جديداً يكون فيه صلاحها وفوزها .

ولقد كانت حالة إيطاليا يومئذ تبيت على الأسى ، فلم تكن أكثر من اسم جنرافي على حد تعبير مترنيخ ، ففيها ولايات الشمال والوسط والجنوب ، وفيها ولايات البابا ؛ وفوق ذلك كانت ولاية لبارديا خاضعة لحكم النمسا المباشر ، على أن سلطان النمسا كان متفلاً في شبه الجزيرة جميعاً .

وكانت هذه الوحدات مستقلة بعضها عن بعض ، حتى لقد وضعت حدوداً جبركية فيما بينها ، فلم يك ثمة ما يشعر أهل إيطاليا بأهمهم شعب ، اللهم إلا شعورهم جميعاً بوطاة الحكم النمسي الذي كان قوامه الرجعية الشديدة في شتى مظاهرها البنيضة من خنق للحرية جميعاً ، إلى إهمال شائن للشئون العمرانية والاقتصادية ، وللتعليم والثقافة العامة ، لأن هذه جميعاً كانت عند مترنيخ وأهوانه عناصر القوة التي لا يأمن معها أن تبتث الثورات من جديد في كل مكان

وفكر مازيني في حال إيطاليا فرأى الظلام الكثيف يحجم عليها وهذا الظلام لا ريب مدعاة إلى اليأس والخوف ، ولكن في قلوب غير قلبه ؛ أما هو فقد كان يتلمس النور الباهر الذي لا يلبث أن يكسح هاتيك الظلمات كلها - في شيتين: الإيمان والشباب ، ومن هنا برزت إلى الوجود جمعيته الجديدة «إيطاليا الفتاة» أو قل بدأت رسالته إلى الجيل الجديد: رسالة الوحدة والحياة الحرة... وتفضل الإيمان في قلبه الكبير وأحس ما يحسه كل صاحب دعوة من حرارة ذلك السراهل الذي لا يعرف مستحيلاً أو يحفل برهبة ، ورفع الفتى مشطه فوق رأسه ووضع روحه فوق كفه ، ومشى يبدد ظلام اليأس وعلى عجايب الأبلج نور الوطنية وصرامة الجهاد ، وفي هنيهة الباسميين أشمة اليقين وبريق الأمل

التاريخ في سير أبطاله

مازيني

[رسول الحرية إلى نومه ، المجاهد الذي أبلى في جهاده مثل بلاء الأنبياء]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣ —

—>>><<—



ولكن حلاوة الجهاد ما لبثت أن أنسته مرارة الفربة، وإن النفوس الكبيرة لتتمزى بنيل غايتها فيما يصيبها في سبيل تلك الغايات ، فتستمرزب الألم وهو صر ، ويحلو لها في سبيل النصر الجلاد؛

ويراد بها أن تذلل فما يكسبها الإذلال إلا إياه الأبطال وحفاظ أولي القوة من الرجال ؛ وما يزيدنا العذاب والنكال إلا إصراراً على النضال وإيماناً في الاستبسال ، ولن نحول بينها وبين غايتها قوة حتى الموت ، فإنها إن ترهق فقد تم لها بالاستشهاد أروع مواقف الجهاد ...

ولقد كان مازيني من أولئك البواسل الميامين الذين تبتث الشدائد كامن قوتهم ، وتوقظ الحمن نوازع نفوسهم ، حتى لكان الشدائد والحمن من مستلزمات ذواتهم ومقومات أخلاقهم .

استقر مازيني في منفاه يتدبر فيما كان يبتلع في نفسه ، وأخذ يتساءل ماذا بقي في بلاده من أثر الثورة التي هبت في فرنسا ؟ لقد أحزنه قبل نفيه أن يرى فرنسا تطلق يد مترنيخ في إيطاليا فيبطش بها في سنة ١٨٣١ كما بطشت بها في سنة ١٨٢٠ ، ويقضى في غير هواذة على ما انبثت من مظاهر المصيان في مودينا وبارما والولايات البابوية ، وقد حزر ذلك الوزير النمسي الملك الجديد الذي تربع

سبيل إلى الجيوش النظامية التي تكون بالضرورة من صنع الحكومات .

واستقر الفريب المنفى في مرسييليا يعمل في غربته من أجل وطنه ، ويخرج إلى الوجود ما امتلأ به رأسه من الأفكار ، وأحاط به أول الأمر خمسة من الشباب ، أخرجوا مثله من وطنهم فصاروا حواريه في رسالته

وما نجد في تاريخ الحركات الشعبية حركة بدأت على مثل هذه الصورة التي بدأت بها حركة « إيطاليا الفتاة » ، فهؤلاء الخمسة الميامين ، هؤلاء السابقون الأولون ، وعلى رأسهم زعيمهم ، كانوا كل شيء ؛ استأجروا داراً صغيرة وراحوا يعملون ليل نهار لتحقيق مبادئهم ! أيكون في تاريخ الجهاد أعزب من أن يعتزم ستة من الفتيان يموزم المال والجاه توحيد شعب ممزق وتمحرره من سلطان دولة حامية مهيمنة ؟ ولكن الشباب إذا آمن لا يفر من المستحيل ، فليشم هؤلاء الأبطال عن سواعدهم وليسهروا الليالي في الكتابة ومراسلة من يريد أن ينضم إليهم حتى تكمل أبصارهم فيناموا بعض ساعات ثم ينهضوا للعمل مجدوم الأمل ؛ وليوح إليهم زعيمهم بالصبر ويثبت في قلوبهم الإيمان ، فهذا أجدى عليهم وعلى حركتهم من الجاه والمال

هكذا بدأ مازيني وحواريه ، فرطان ما انضم إليهم الأنصار ، واجتمع لهم بعض المال فأنشأوا صحيفة يذيمون بها آراءهم ومبادئهم . وشد ما فرحوا بهذا راستبشروا به ؛ وكان مازيني يحرر أكثر أجزاءها وحده فيثبت فيها من روحه ؛ وكان أصحابه بمحتالون ، وقد تكلم عدد من عدد مرديهم على تهريب تلك الصحيفة إلى إيطاليا كما كانوا يهربون إليها بين حين وآخر بعض المطبوعات الصغيرة التي توحى إلى القراء مبادئ الجمعية وتعلمهم دروس الوطنية

وأقبل مازيني وحواريه على العمل ، يزدادون نشاطاً وهمة كلما ازداد عدد أنصارهم . وانقضى عام فرأى الزعيم الشاب ما شرح صدره وملاً نفسه بما تتخلى به نفس المؤمن من نشوة الظفر ، فللجمعية مرا كز في شمال إيطاليا ووسطها ، وأعضاؤها يلفون في إيطاليا وخارج إيطاليا مائة ألف أو يزيدون ؛ وهذا مجاح جاء أكثر مما كان يتوقع

وتقع عين مازيني على أسماء الأعضاء وأعمالهم في نبت سرى فيسره ويثبت فؤاده أن يرى فيهم بعض النبلاء وبعض الضباط ، حتى القصارسة يجد أسماءهم بين المجاهدين ؛ وتطيب نفسه بذلك

ولخص مازيني دعوته في كلمتين : الله والشعب ، وراح يبشر بدينه الجديد في غير مبالاة بما يعترضه من الصعاب . ولقد جعل أساس كفاحه التضحية ، فدعا حواريه وأنصاره إلى أن يتألموا حتى تخصص نفوسهم الآلام ، وتقوى عزائمهم المحن ، وتعلم مبادئهم ما يلاقونه في سبيلها من أنواع العذاب

وعول على أن يثبت النور في كل قلب ، ويحيي بالحماسة كل نفس ، ويجري أناشيد الوطنية العذبة على كل لسان ، حتى يتألف من الشعب كله قوة تهزأ بكل قوة ، وتطفىء بالدم الغالي بريق الحديد ولهب النار . وعنده أن كل حركة شعبية مصيرها إلى الفشل ما لم تتم على أساس من الوطنية الصحيحة المنبثقة من الأعماق ، تلك الوطنية التي تحترق أعراض الدنيا ، لأنها متصلة بالسماء ، والتي تضحي بالنفس في سبيل العقيدة ، لأن قوام العقيدة الغذاء وكان هو أكثر الناس إيماناً بوحدة إيطاليا ، يوقن أن سوف يأتي اليوم الذي تتم فيه رسالته على يده هو أو على يد غيره من الأحرار . ولقد اتخذ من الشباب جنده وأعوانه ، لأن قلوب الشباب بطهارتها وحرارتها أجدر بالإيمان وأسرع إلى البذل وأقوى على العذاب . قال في ذلك : « اجعلوا الشباب على رأس الجماهير الثائرة ، فإنكم لا تعلمون مدى القوة الكامنة في تلك الأيدي الصغيرة ، ولا مدى ذلك التأثير السحري الذي يكون لأصوات الشباب بين الجموع ، وسوف يجدون في الشباب رسل الدين الجديد » . وعظمت ثقته بتلك القلوب الفتية حتى أنه كان لا يقبل عضواً في الجمعية من تزيد سنه على الأربعين ، إلا في ظروف استثنائية حينما كان يتقدم إليه ذو منزلة ، أو ذو سن كبيرة وقلب فتى .

ولئن نشبت قلوب الشباب بمبادئ الوطنية والتضحية فسوف تنسرب منهم إلى سوام ؛ ولكن كثيراً من الصناعات والتجار والفلاحين لن يشايعوهم إلا إذا كان إلى جانب الوطنية إصلاح يتناول شؤونهم ؛ وعلى ذلك فقد جعل مازيني من مبادئه جماعته الإصلاح الاجتماعي في أوسع نطاقه وبذلك زاد مبادئه قوة ورسوخاً وكان يرى مازيني أن الحرب « هي القانون الأبدي بين السيدوين المبد الذي يريد أن يحطم الأغلال » ، ولكنه كان يشير إلى الحرب غير النظامية لأنها الوسيلة الطبيعية للشعب الثائر في وجه القوة المنظمة ، فالمثل هذا الشعب الذي يعتمد على نفسه

القوية بتناعبها التي لا تنفذ والتي لا يموزها إلا النرض المشترك ؛
الحاطة بمحدود من النعمة بحيث لا تحتاج إلا إلى عزيمته وثيقة وبعض
القلوب البواسل لحمايتها من المداء الخارجى . ضع نفسك على رأس
الشعب ، واكتب على رايتك : الاتحاد والحريّة والاستقلال .
حرر إيطاليا من البربرية وابن المستقبل وكن نابليون حربة إيطاليا .
افعل ذلك نلتف حولك وتقدم حياتنا من أجلك وجميع الولايات
الصغيرة تحت علمك . إن نجارتك في حد سيفك ، فأشهر السيف
واطرح الغمد ، وتذكر أنك إن لم تفعل ذلك فسيفعله غيرك دونك
وبوجهه ضدك .

في هذا الخطاب تتجلى حماسة الشاب الجاهد ، وتبين آماله ،
وتتضح زعامة ؛ وفيه قبس من وميض حماسه وفيض من حرارة إيمانه
وقوة وجدانه ، ولكنه لم يظفر من الملك برد ، وكان جواب الحكومة
أن أمرت بالقبض على مرسله إذا اجتاز الحدود الإيطالية
على أن يبد منت ما لبثت بمد سنتين أن امتلأت كما امتلأت
الولايات الأخرى على نحو ما أسلفنا بأنصار مازينى ، وفي نصرة
الشعب له خير عوض عن معونة الملك

وتسربت سبائى الجمعية إلى جيش بيدمت ؛ وكان يذيعها فيه
رافينى كبير أنصار مازينى وساعده الأيمن في جهاده ، وأحكمت
مؤامرة للقيام بثورة عن طريق الجيش ؛ ولكن تلك المؤامرة
اكتشفت وأسفاه ؛ وبطشت الحكومة بالمئات من ؛ فقتلت عشرة
من الضباط رميا بالرصاص واثنين من المدنيين ، فضلا عن أودعتهم
السجون من الرجال ، حيث أخذت الحكومة تنكل بهم ليتمروا
وكان رافينى ممن سجنوا ، وخير في سجنه بين الاعتراف
على شركائه والنجاة من الموت أو الإنكار والإعدام ، فاختر
الموت ولكن بيده هو ، فانتحر في سجنه . ونهى خبر الفاجعة
إلى مازينى فاشتد وقعها عليه ، حتى لقد كانت من أعظم ما ناله
من الحزن ؛ وتوزع الحزن قلبه حتى ما يفيق من النوم ، ووهن
جسمه واعتلت صحته كدأ على صاحبه الشهيد .

الخطيف

(يتيم)

وحواله الجهاد وتلوح له بوارق الأمل فتسهل الصعب وتقرب البعيد
وكان ممن انضموا إلى الجمعية رجل سوف يكون له في تاريخ
وحدة إيطاليا وحريتها شأن عظيم ، وذلك هو غاريلى المجاهد
البطل والغدائى الأروع الذى جمع حوله سجاياه المذبة وشجاعته
الفائقة قلوب الرجال .

وراح الزعيم ينشر تعاليمه ويرسم خططه . استمع إليه كيف
يقول لأنصاره : « اصعدوا الجبال واذهبوا إلى القرى وشاطروا
العامل والفلاحين طعامهم التواضع ، وجالسوهم ومحدثوا إليهم ؛
وزوروا المصانع والمصانع الذين أعمالوا حتى اليوم . حدثوا هؤلاء
عن حقوقهم وعن ذكريات ماضيهم وتقاليدهم ومفاخرهم السالفة
ومجاربهم التي صرت ، وعددوا لهم ما لا يتفقد من أنواع الاضطهاد
التي يجهلونها لأنهم لم يجدوا من يكشفها لهم . »

بهذه الطريقة راح مازينى يرسل صوته إلى الأعماق ويملاؤه
الآفاق ؛ ولقد نخرج معظم ذوى الشأن في المستقبل من رجال
إيطاليا في جميته ، فكان له بذلك شرف لن يتاح إلا لأفذاذ العطاء ؛
شرف الخلق والتكوين ، فما كانت إيطاليا الحديثة إلا من صنع يده .
وإن تمت وحدتها على أيدي غيرها . وبذلك يمد مازينى من مكوفى
أوريا الحديثة ، وهي منزلة لن يشاركه فيها إلا أمثال بسمارك ومن
على شاكلتهما ممن تقرن أشخاصهم بحركات عامة توجه التاريخ
وجهته في فترة من فتراته .

وكان ممن كاتبهم مازينى ليماونوه : شارل ألبرت ملك ولاية
بيدمنت ؛ وكان ذلك بعد خروجه من إيطاليا ببيعة أشهر ، وقد
كان يعلم عن شارل بالأمس أنه من ذوى الآراء الحرة ، إذ كان
متصلا بالكاربونارى وكان بمطف على ثورتهم التي هبت سنة ١٨٢١ ؛
ولكن مازينى كان مسرفا في حسن ظنه به . وكيف كان يرجو
الساعدة من ملك يتناول تاجه في الواقع من النمسا ؟ ولئن كان
شارل بالأمس نصير الحرية ، فهو اليوم على عرشه ينعضها ويحذر
منها ، فلقد نجر إلى الثورة دعوة الداعين إليها ، وما له حيلة إلى
إجابتهم ، والنمسا تلوح للبلاد بسيف التلب . قال مازينى في خطابه

« هناك يا مولاي طريق آخر إلى القوة والخلود العظيم ، وحليف
آخر أقوى وأسلم من النمسا أو فرنسا ، وتلج أكثر لمعانا وبهجة
من تاج بيدمت ، تاج ينتظر الرجل الذى يجرؤ على أن يفكر فيه
والذى يوجه حياته للحصول عليه ... ألم تلق يا مولاي قط مثل
لحة النسر على إيطاليا هذه ، إيطاليا التي تجملها بسمه الطبيعة ،
والتي بنزجها عشرون قرنا من الذكريات الجميلة ، أرض العبقرية

